الصاغة وفنونهم المعدنية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام

أ.منال السماعيل

قسم الآثار – جامعة الملك سعود

الملخص:

يتحدث هذا البحث عن نشأة وتطور فنون صياغة الحلي المعدنية في فترة ما قبل الإسلام في شبه الجزيرة العربية بشكل عام، حيث نشأت هذه الحرفة فطرية بسيطة في البداية ثم أخذت تتطور عبر الزمن بتطور المجتمعات، وذلك من حيث الغرض والخامة والصناعة والزخرفة، والتعريف بالصاغة وورشهم، بالإضافة للأدوات والتقنيات وأساليبها الصناعية المستخدمة في إنتاج الحلي المعدنية بمختلف خاماتها من الذهب والفضة والبرونز والحديد واللؤلؤ والأحجار الكريمة وغيرها.

Abstract:

This research examines origins and evolution of the arts of metal jewels in per-Islamic Era in Arabian Peninsula, in general.

Initially, this craft had been inherently originated in simple from, and then began to evolve over time along with the development of societies, in terms of purpose, fabrics, manufacturing and decoration. This research provides definitions of jewellers and their workshops, besides tools, technologies and manufacturing methods used in the production of metal jewels of different fabrics including gold, silver, bronze, iron, pearls, precious stones, etc.

الكلمات المفتاحية:

حلي، صياغة، صاغة، صواغ، حرفة، معدن، ورش، تقنية، ذهب، أدوات.

Keywords: Jewelers, Goldsmiths, Craft, Metal, Workshops, Technology, Gold, Tools.

مقدمة:

تعد الحلي والمجوهرات المكتشفة القديمة مظهر من مظاهر الذوق الفني الإنساني وشاهد على مراحل تطوره وعلى عادات المجتمع وتقاليده، وهي تعطينا تصوراً للصلات الإنسانية بين أفراده، ومفهومهم الجمالي وميولهم الروحية وإمكانياتهم المادية؛ لذلك أقبل الإنسان على حب الحلي والمجوهرات.

فالإنسان البدائي الأول في العصور الحجرية الموغلة في القدم، ومنذ أن أتخذ من الكهوف مسكناً له، تعلم من الطبيعة التحلي والتزين، فقد كان يتحلى بأسنان الحيوانات التي يتغلب عليها، ويجعلها رمزاً للقوة والغلبة على الطبيعة من حوله، وبتطور المجتمع البدائي الأول وتحول الإنسان من جامع للقوت إلى زارع، ونزوله إلى السهول والبوادي في تجمعات قبلية زراعية أدت إلى تكون القرى ومن ثم المدن ونشوء الدويلات ثم الدول وبزوغ الحضارات الأولى، فكانت هناك مرحلة فكرية جديدة إذ أصبح له معتقداته وعادته، وتعددت حاجاته، وأعطي استخدام الحلي مفهوماً جديداً غير تقليد الطبيعة ومحاكاتها، منها معانٍ سحرية ودلالات أسطورية ورمزية، كما أن منها ما اختص به الكهنة أو المحاربون والصيادون والقادة والفرسان والملوك وأضيف إليها قيم دينية وسحرية واجتماعية. (العزي، ١٩٨٨: ٢٥) فتطورت صناعتها، وصار لها قصة طويلة في التاريخ والفن.

إن روائع قطع الحلي المعدنية المُكتشفة في جميع المستوطنات القديمة توحي بأن الصائغ كان فناناً مبدعاً من الدرجة الأولى، وأن فن الصياغة كان مزدهراً في العصور القديمة، ومن الحِرف المنتشرة عند عرب شبة الجزيرة العربية لتوفر خاماتها لديهم.

وتدل المعثورات من الحلي المعدنية التي تم العثور عليها في عدد من المواقع الآثارية في شبه الجزيرة العربية أنها جاءت متباينة في وظائفها وأسلوبها الفني والتقني، مما يؤكد على أنها من الموروثات التي عرفها مجتمع شبه الجزيرة، ومع تزايد الانفتاح الذي شهدته المنطقة على الثقافات الوافدة أصبحت مرتبطة بالخط الحضاري العام لسكان الحاضرة آنذاك، وتغيرت المواضيع كما تنوعت الأساليب ودخلت عليها تأثيرات خارجية غير مباشرة. كما عكست معظم المعثورات من الحلي المعدنية الاستقرار الاقتصادي، ومظاهر الترف والتمدن والتحضر الذي وصل إليه سكانها.

وفي ذات الجانب نلاحظ أن المشغولات المعدنية نادراً ما تحمل توقيعاً، لهذا تظل شخصية الصائغ غامضة، ولم يُعرف إلا القليل عن الصاغة الأفراد، وورشهم، فلم يكن الصاغة يحظون بمنزلة رفيعة؛ إذ إن بعضهم في الواقع كانوا عبيداً، وإن كانت لهم قيمة كبيرة، فغالباً ما كانوا يحظون برعاية ذوي النفوذ، ويعتبرون أنفسهم فنانين أعلى منزلة من الحرفيين الآخرين. (لانيس،٢٠١٣م: ٧٦)، وقد اعتمدت المستويات التي يصل إليها الصاغة بحسب إتقان الأساليب المختلفة لصياغة الحلي، وخصائص الخامات المستخدمة، والوقت، أكثر من اعتمادها على دقة وكفاءة أدواتهم وعدتهم. (زين العابدين، ١٩٨١: ٣٠٢)

ومن خلال هذا البحث، ستتم محاولة القاء الضوء على ما يتوفر لدينا من معطيات عن الصاغة وحرفة الصياغة في شبة الجزيرة العربية قبل الإسلام.

١- الصاغة:

الصَّائِغُ هو لفظ يطلق على من يحترف الصياغة، ويعمل في سبك الذهب أو الفضة وغيرها، والجمع: صاغةٌ، وصُوّاغٌ، وصُيّاغٌ. (العمري، ١٩٨٥: ٢٧٣)، وقد كانوا ينشطون نشاطاً عظيماً كلما حل الاستقرار في أي منطقة. (غنيمة، ١٩٩٤: ١٨) ويذكر السمهودي بأن يثرب تميزت قبل الإسلام بحرفة الصياغة وأنه كان في قرية زُهْرة وحدها، وهي من أعظم قرى يثرب بين حرة واقم والسافلة، ثلاثمائة صائغ. (دلّو، ١٩٨٩: ١٢٣)

ومع الوقت أصبحت مهنة الصائغ من صميم شأن الأسرة، تتوارث فيها الحرفة ابنا عن أب، بأسرارها التقنية للمهنة حيث كانت إسوة بسائر الحرف الأخرى محفوظة في صدور أسر محدودة تتناولها الأجيال وراء الأخرى. (Williams, 1994: 54)

ولا يوجد دليل ما على وجود نظام لنقابات أو لطوائف صاغة الذهب، إلا أنه من المرجح أن حرفة الصياغة بقيت في يد عدد محدود من العائلات. (زين العابدين، ١٩٨١: ١٩٩)، كما كان مساعدو الصائغ والصناع الذين يشتغلون عنده يدعون بالتلاميذ. (العزي، ١٩٨٨: ٢٩)، وفي ذات الجانب نلاحظ أن المشغولات المعدنية نادراً ما تحمل توقيعاً، لهذا تظل شخصية الصائغ غامضة، ولم يُعرف إلا القليل عن الصاغة الأفراد، وورشهم، فلم يكن الصاغة يحظون بمنزلة رفيعة؛ إذ إن بعضهم في الواقع كانوا عبيداً، وإن كانت لهم قيمة كبيرة، فغالباً ما كانوا يحظون برعاية ذوي النفوذ، ويعتبرون أنفسهم فنانين أعلى منزلة من الحرفيين الآخرين. (لانيس،٢٠١٣م: ٧٦)، وقد اعتمدت المستويات التي يصل إليها الصاغة

بحسب إتقان الأساليب المختلفة لصياغة الحلي، وخصائص الخامات المستخدمة، والوقت، أكثر من اعتمادها على دقة وكفاءة أدواتهم وعدتهم. (زين العابدين، ١٩٨١: ٣٠٢)

ومن المدهش أن يبلغ الصائغ هذا المستوى التقني بأدواته البدائية، وقدراته الضئيلة للسيطرة والتحكم في درجة الحرارة للصهر. (زين العابدين، ١٩٨١: ٣٠١)، وما من شك في أن نقاء المعادن وضبط عيارها الحقيقي في المشغولات من الأمور التي انتبه إليها القدامى منذ زمن طويل، وكان من الخطورة إسناد مثل هذه الأعمال إلى غير المتخصصين. (زين العابدين، ١٩٨١: ١٩٦)

٢- حرفة الصياغة:

أن حرفة الصياغة من أقدم الحرف التي عرفت في الشرق الأدنى القديم، وقد اكتشفت آثار من هذه الحرفة ترجع إلى العصور الحجرية صيغت من الأحجار والأصداف وأسنان الحيوانات وعظامها. (أبو تراب، ١٩٩٣: ٣٠١) وفي ذات السياق يذكر الباشا أن الصناعات المعدنية ظهرت منذ العصر الحجري النحاسي وكانت فطرية بسيطة ثم أخذت بالتطور على مرّ الزمن من حيث الصناعة والزخارف. (الباشا، ٢٠٠٠: ٢٧٠) وكانت الصياغة تعتمد على الذهب والفضة واللؤلؤ والأحجار الكريمة وغيرها، (دلّو، ١٩٨٩: ٨١) فقدَّ كان العرب في شبة الجزيرة العربية قبل الإسلام يعرفون الذهب والفضة والمعادن وطرق صياغة الحلي فتعددت أنواعها، منها ما اتخذ لتزيين الرأس والأذنين والأنف والجبين والعنق، ومنها ما يزين الصدر والوسط، ومنها ما وضع في اليد والأصابع وحول الساق، وأشتهر عندهم القلائد من الذهب أو الفضة أو اللؤلؤ (الكرم)، وكذلك السوار الذي تضعه المرأة في معصمها، كما عرفت الحجول المصنوعة من الذهب أو

الفضة وتلبس في الأرجل، كما عرفت الخواتم التي تلبس في أصابع اليدّ والرجل وتسمى (الأفتاخ). (السناني، ٢٠٠٨:٧٧)

فحرفة الصياغة سحيقة القِدم مبدأً ومعنى، ومنذُ أن عُرفت في التاريخ القديم حملت المشغولات المعدنية نقوشاً هندسية وزخارف وطلاسم وتعاويذ ورموزاً وشعارات، كما قُدِّمت كهدايا للآلهة والأباطرة والملوك والأمراء ورؤساء القبائل والنساء، وقد صنعت من الذهب الخالص وحُلّيَت بالأحجار الكريمة المختلفة. (أبو تراب، ١٩٩٣: ٣٠١) ومع تطور الأوضاع الاقتصادية – الاجتماعية ونشاط التجارة وتوسع آفاقها، تجمعت ثروات طائلة، لدى الارستقراطيين وأثرياء التجار، والحكام وكبار الموظفين وقادة الجيش في المناطق التي نشأت فيها الدول القديمة في شبه الجزيرة العربية، فأقبل هؤلاء على اقتناء الحلي والمجوهرات لنسائهم، مما ساعد بدوره في تنمية هذا اللون من الأنشطة الفنية والصناعية. (دلّو، ١٩٨٩: ٨١)

فقد كانت صياغة الحلي والمجوهرات سائدة في حضارات شبه جزيرة العرب القديمة الجنوبية أمثال سبأ ومعين وحمير، كذلك الحضارات الشمالية كالمناذرة والغساسنة والأنباط. (العزي، ١٩٨٨م: ٢٨) وكانت اليمن قديماً ميداناً لتجارة الذهب وغيرها من المعادن، وبرزت لها أسواق خاصة. (المغربي، ٢٠٠٤: ١٢) كما أن مكة قبل الإسلام كانت مركزاً للقاء العرب الشماليين والجنوبيين، وقد انتقلت وتبودلت عن طريقها الأساليب والصناعات والفنون. (العزي، ١٩٨٨: ٢٧)

وتذكر الفاسي بأن المرأة العربية تزينت بأشكال مختلفة من الحلي والمجوهرات إذ تظهر الملكات النبطيات وعليهن عقود وأقراط وأساور. (الفاسي، ١٩٩٣: ٢٩٩) ومع زيادة البذخ في المجتمعات الرومانية انعكس

ذلك على الملابس والأزياء والحلي الثمينة التي أعطت مؤشرات للتنوع والجودة والمهارة الحرفية. (Lightfoot, 2000, 78)

وقد ورد ذكر أساور الذهب في القرآن الكريم أربع مرات، وجاءت كوعد للمتقين في جنات عدن، في قوله تعالى: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ (٢٣)﴾ الحج، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ...(٣١)﴾ الكهف، ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا (٣٣)﴾ فاطر، كما وصف تعالى قول فرعون لموسى: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ (٥٣)﴾ الزخرف. وكذلك أساور الفضة في سورة الإنسان قولة تعالى: ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ... (٢١)﴾.

كما إن وفرة المعادن كالذهب والفضة والبرونز والنحاس بنوعي الأحمر والأصفر، بالإضافة إلى الأحجار الكريمة، ووجود مناجم التعدين في بيئة جنوب ووسط شبه الجزيرة العربية تعد من أهم أسباب تطور وازدهار صناعة الحلي المعدنية.

٣- ورش الصاغة:

أما ما يتصل بالورش، فلم يعثر في السجلات الأثرية على تصور كامل لورش الصياغة، فالصاغة بخلاف الحدادين أو صانعي الزجاج والفخار، لا يحتاجون إلى مواقد كبيرة أو هياكل خاصة لعملهم، ولأن الخامات المستخدمة معادن نفيسة جداً فهي لا تُترك مُلقاه في الجوار، رغم أن البواتق والقوالب المهملة والمطروحة جانباً قد تحتفظ بآثار المعادن التي يمكن كشفها بالتحليل العلمي. (لانيس،٢٠١٣م: ٨٠)

كما ورد في نقوش المسند ما يدل على وجود المكاييل ووحدات الوزن للمعادن وغيرها التي تصنع من البرونز، مثل برمت وصاع، كما عثر في "الفاو" على مكيال مصنوع من الخشب. (النعيم، ١٩٩٢: ٢٧٦)

وتبين رسوم بلاد وادي النيل كيف مارس الصاغة سبك المعادن بإتقان تام مُنذ عصر الدولة القديمة، فقد كانوا يضعون المعدن في بوتقة من الخزف وتوضع في سلطانية بها جمر ملتهب، ولزيادة وهج الفحم ينفخ عليه من خلال أنبوب من القصب يبطن طرفه بالطين مع تغيير الطين بين حين وآخر، كما استخدموا في الدولة الحديثة (١٥٥٢م-١٢٦٩ ق.م) منفاخاً من الجلد يُدفع بالأرجل لرفع درجة حرارة الجمر. (الزاير، ٢٠١٢: ٣) كما ورد إشارة إلى طريقة صياغة الحُلي بصهر المعادن عن طريق الحرارة في القرآن الكريم سورة الرعد في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ (١٧)﴾،

٤- أدوات الصاغة:

أما من جانب الأدوات التي استخدمها الصائغ القديم لإنتاج المشغولات المعدنية فالسجلات الاثرية تشير إلى أنه لم يتم العثور على بقايا تؤكد طبيعة هذه الأدوات التي تم استخدامها، كما أنه ليس من السهل بصرياً تمييز أدوات الصاغة عن أدوات الحرف الأخرى بعد أن تبلى مقابضها الخشبية ويصدأ حديدها، على الرغم من أن الصائغ لا يرمي أدواته في العادة، فقد تم اكتشاف بعض المخابئ لأدوات الصائغ. (لانيس،٢٠١٣م: ٨٠)، مما أعطى شيئاً من التصور لها، فهناك أدوات أساسية ضرورية لا غنى عن استخدامها، في حين أن هناك أدوات ذات دور ثانوي من الممكن أن تحل محلها أدوات أخرى سواء في مراحل الصناعة أو الزخرفة، فالصائغ يقوم بصناعه أدواته بنفسه دون الحاجة لمقايضتها أو شراءها. (الزير، ٢٠١٥: ٣٧)، وتحتفظ السجلات الأثرية بعدة أنواع من الأدوات، لعل أهمها ما يلي:

- المطارق: تعد المطرقة من أهم أدوات الصائغ، ومنها اشتق اسم أشهر الطرق الصناعية (طريقة الطرق أو الدقّ). (العمير، ١٩٩٩: ٢٥)، كما تسمى أصغر مطرقات الصائغ (العسقلان). (الألوسي، ١٩٨٢: ٤٠٤)

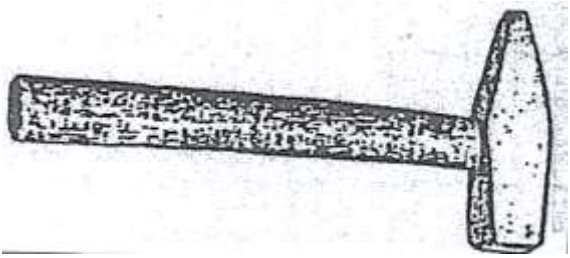

الشكل (١): المطرقة

المصدر: (العمير، ١٩٩٩: ٤٥)

- السّندان: وهو مُرتكز معدني صغير يسهل الطرق فوقه. (أبو تراب، ١٩٩٣: ٣٠٧)

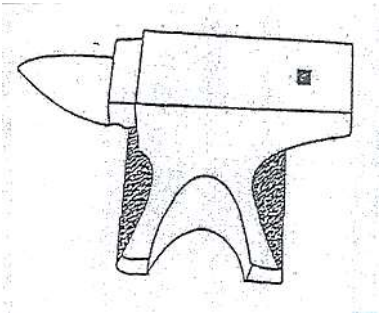

الشكل (٢): السندان

المصدر: (العمير، ١٩٩٩: ٤٥)

- الكلابة (الكلبتان): وهي أداة حديدية تشبه المقص، إلا أن مقبضها طويل فيما عدا منطقة تقاطع القضبان، وتستخدم لتحريك القطع المعدنية فوق (السّندان) عند تشكيلها. (العمير، ١٩٩٩: ٢٢).

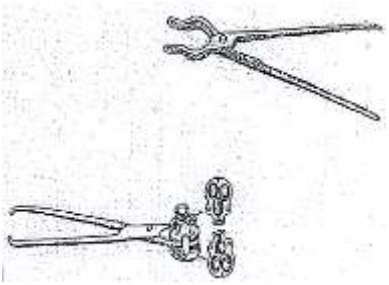

الشكل (٣): الكلابة

المصدر: (العمير، ١٩٩٩: ٤٥)

- السنب: وتستخدم للنقش اليدوي، وهي عبارة عن قضبان حديدية دقيقة شبيهة بالمسامير الكبيرة مع اختلاف رؤوسها حسب الشكل والدقة والحجم للنقش أو الزخرفة المطلوبة، وجاءت بأحجام مختلفة ومتعددة، مسننة ومدببة، ولكل (سنب) وظيفة خاصة لعمل جزء من النقش على الذهب أو الفضة يستخدمها الصائغ عند الحاجة الواحدة تلو الأخرى. (أبو رقيبة، ٢٠٠٠: ١٣٨)

الشكل (٤): السنب

المصدر: (أبو تراب، ١٩٩٣: ٣٠٦)

- الكاوية: وهي أداة عبارة عن قضيب معدني يبلغ متوسط طوله (٤٠) سم بأحد أطرافه مقبض خشبي عازل، أما الطرف الآخر فمعقوف به شق صغير

تثبت به المادة المراد لحمها كأسلاك النحاس، ومن الممكن أن يستخدم في كثير من الحالات دون أن يثبت به شيء، أي أنه يحمى على النار ثم تكوى به مادة اللحام على الجزء المراد تلحيمه. (العمير، ١٩٩٩: ٢٢)

- الغداف: وهي أداة مصنوعة من الحديد شبه أسطوانية، يتم إدخال الخاتم في أحد طرفيها، ليتم تشكيلة وفق التصميم المطلوب. (الألوسي، ١٩٨٢: ٤٠٤)

- البوتقة: عبارة عن وعاء خاص من الفخار الناري مختلف الأحجام يستخدم لصهر المعادن الثمينة حيث تسكب بعد صهرها بقالب فولاذي. (أبو تراب، ١٩٩٣: ٣٠٧)

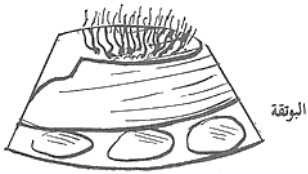

الشكل (٥): البوتقة

المصدر: (أبو تراب، ١٩٩٣: ٣٠٦)

- قوالب الصبَّ: هي كتل من الصلب تحفر فيها عادة تجاويف لتشكيل المطروقات، ويصنع قالب التشكيل عادة من جزأين في كل منهما تجاويف مشكلة، وهي من الأدوات الرئيسية التي يعتمد عليها كثير من الصُناع في تنفيذ أعمالهم، ويحصلون من خلالها على أحجام وأشكال متعددة من الأسلاك والقضبان والصفائح المعدنية التي تصنع منها الأدوات بشكل مباشر. (الزير، ٢٠١٥: ٣٩).

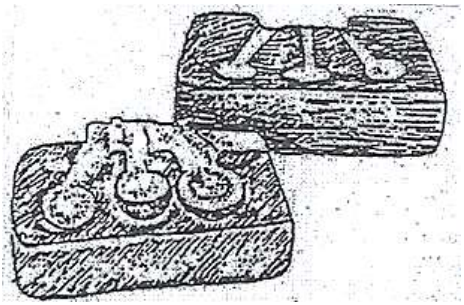

الشكل (٦): قوالب الصب

المصدر: (العمير، ١٩٩٩: ٤٥)

- قوالب التشكيل: هي قوالب تستخدم في عمليات السك، أو لتحديد الشكل، وتأتي أما على شكل قالب مسطح مفتوح لا تحفر فيه تجاويف، أو يكون فيه تجاويف بسيطة جداً. (عبد الواحد، ١٩٦٧: ٩٦).

- الحِملَاج (الكير): وهو منفاخٌ صغير عبارة عن حديدة مجوفة ينفخ فيها الصائغ للإذابة بفعل الحرارة، والسبك على الشكل المطلوب. (العمري، ١٩٨٥: ٢٧٨)، وقد يكون أداة من جلد أو نحوه، أو قصبة تُغطى فوهتها بطبقة من الطين الذي يجب أن يتجدد ويتغير كل مدة. (زين العابدين، ١٩٨١: ٣٠١).

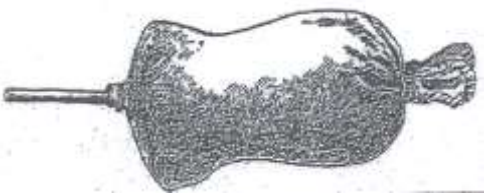

الشكل (٧): الحِملَاج (الكير)

المصدر: (العمير، ١٩٩٩: ٤٥)

- المبارد: وهي عبارة عن أداة معدنية تتميز بأحجامها وأشكالها المتنوعة، وتستخدم لبرد أسطح المصنوعات المعدنية بعد تشكيلها لإزالة ما فيها من نتوءات أو بروزات تطرأ عليها، ولتسوية الأجزاء الملحمة فيها بعد الانتهاء من صناعتها، وكذلك تستخدم لعمل بعض الأخاديد، أو الفتحات ذات الطابع الوظيفي أو الزخرفي في القطعة المصنوعة. (يوسف، عاشور، ١٩٩٥: ٢٠).

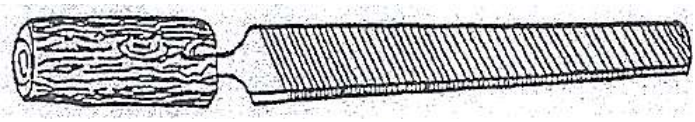

الشكل (٨): مبرد

المصدر: (العمير، ١٩٩٩: ٤٥)

- الأتون: وهو الفرن الذي توقد النار أسفله ويستخدم لإذابة المعادن وإحالتها إلى سائل، فهو عبارة عن وعاء من الفخار أو الخزف مرفوع على قاعدة، ومملوء بالفحم النباتي المتقد. (زين العابدين، ١٩٨١: ٣٠٤)

- الزفت: وهي مادة عبارة عن نوع من أنواع (الجير) الطري الذي ينصهر ويتحول إلى سائل عند توجيه النار قريباً منه، يستخدمها الصائغ مع المطرقة الصغيرة، حيث يضعها على القاعدة حسب حجم قطعة الذهب المراد نقشها وتكون سميكة ثم يوجه النار لكي يجعل سطحها أملس ومستوياً دون تعرجات، ثم يقوم بتسخين قطعة الذهب المراد نقشها حتى تسخن جيداً ويضعها على الزفت فتلتصق وتترك لتبرد، ثم تبدأ مرحلة النقش اليدوي بواسطة الطرق للزخرفة المطلوبة، وتنتزع المادة الزفتية بواسطة تسليط الحرارة حولها بهدوء لحين الذوبان، ثم بعد ذلك تنظيفها. (أبو رقيبة، ٢٠٠٠: ١٣٩)

كما أن الصوّاغ القدماء عرفوا بعض الأدوات الصغيرة التي تدخل في نقش الخواتم والأساور أثناء تصنيعها. (العمري، ١٩٨٥: ٢٧٨)، ومن الوارد أن هناك أدوات معدنية أخرى كان الصاغة يستخدمونها في صناعة حليهم تتباين أشكالها ومسمياتها، وتختلف من صائغ لآخر على حسب احتياجاته يصنع أدواته ومن منطقة إلى أخرى، لم نعرفها ولم تصل إلينا مسمياتها. ولم يطرأ تغيير جوهري على هذه الأدوات فالتقنية هي نفسها.

٥- التقنيات وأساليبها الصناعية المستخدمة في إنتاج حلي الزينة المعدنية:
يتضح من خلال دراسة الأساليب الفنية والتقنية للحلي المعدنية التي تم العثور عليها في مواقع مختلفة في شبة الجزيرة العربية أن الصاغة أبدعوا في توظَّيف عناصر الزخرفة الرئيسية مثل: الخط، والنقطة، والفراغ، كما تنوعت الأساليب الفنية المستخدمة في صياغة الحلي بين الواقعية والتجريد .

واستخدم الصاغة كذلك زخارف ذات أسلوب بسيط وغير معقد في عدد كبير من الحلي والمجوهرات إلى جانب أساليب معقدة وذات دقة عالية، حيث الرصانة في الخطوط وجمال النسب، مما يشير إلى إن صناعة المشغولات المعدنية في شبة الجزيرة العربية تطورت تدريجياً بأساليبها الفنية والتقنية وفق قدرات الصائغ وتزايد خبراته، كما يشير التفاوت في الأساليب الفنية والتقنية إلى وجود فروقات فردية بين الصاغة.

كما أظهرت المكتشفات في مستوطنات شبة الجزيرة العربية بأن معظمها يعود إلى ورش إنتاج محلية؛ إلا أنها لا تخلو من التقليد لنماذج وافدة، وما يعزز هذا الرأي إشارة الأنصاري بأن تماثيل قرية "الفاو" على سبيل المثال بتأثيراتها الخارجية صنعت بيد فنانها؛ فقد استطاع أن يمزج بين هذه التأثيرات وذوقه الخاص المنبعث من ذاتيته العربية الأصيلة التي تعكس

بيئته الخاصة، ومع ذلك لا يستبعد أن قلة من هذه الفنون وردت من خلال وضع "الفاو" التجاري. (الأنصاري، ١٩٨١: ٢٥)، وما يؤكد ذلك نقش المسند الذي عثر عليه في مواجهة معبد سين-شمس، في "الفاو" ويذكر: أن أصحابه قدَّ قدموا للمعبود حليهم التي غنموها في أحد الحروب. (الأنصاري؛ طيران، ٢٠٠٥: ١٠٤)، كما ظهر بعدد من الدراسات الكثير من التشابه في الأساليب الفنية والتقنية بين الحلي المعدنية المكتشفة في أنحاء متفرقة في الجزيرة العربية وبين الحواضر في الدول المجاورة المعاصرة لذات الفترة الزمنية كالأنباط، وبلاد وادي النيل، وحضارة مليحة، وبلاد الرافدين. كما أشارت عدداً من البحوث الاثارية بازدهار صناعة الحلي المعدنية في تلك الفترة الحضارية التي شهدت تزاوج الحضارة اليونانية والرومانية الإغريقية بالفنون الشرقية في أنحاء شبة الجزيرة العربية والمناطق المجاورة.

ويذكر زين العابدين أن أساليب تشكيل المعادن متعددة، كما يندرج تحت كل نوع رئيسي حزمة من الطرق والأساليب التي تجمع بينها خصائص معينة مشتركة، ولعل أقربها إلى الدقة أربعة أنواع رئيسية:

١- تشكيل المعادن على الساخن: يسخن المعدن حتى ينصهر ويصبح عجيني القوام يمكن صبه وسبكه أو طرقه ودرفلته إلى مجسمات وهيئات وأشكال معينة. وتستخدم أساليب هذا النوع عموماً في العمليات الأولية.
٢- تشكيل المعادن على البارد: وهو يماثل أساليب التشكيل على الساخن، كما يستخدم هذا الأسلوب في تشكيل المعادن التي تطاوع دون الحاجة إلى تسخينها.
٣- قص وتخريم المعادن: غالباً ما يتم القص والتخريم للمعادن بنفس أنواع المكابس المستخدمة في التشكيل على البارد.
٤- قطع المعادن: ويقصد بها إزالة الزائد من المعدن؛ لإنتاج سطوح ناعمة مشطبة. (زين العابدين، ١٩٨١: ٢٩٨-٢٩٩)

ومن الجدير بالذكر أن أغلب هذا التقنيات قد يستخدمها الصائغ في إنتاج قطعة واحدة، وستتناول هذه الدراسة فيما يلي أشهر الطرق والتقنيات التي استخدمها الصائغ القديم لإنتاج قطع الحُلي المعدنية كالتالي:

أ- تقنية الصهر والصب في القوالب:

إن مُعظم الحلي المعدنية وخاصة الذهب منها، يبدأ بعملية الصهر وذلك بتذويب المعدن وصبه في قالب، إمَّا أن يكون قالب سبك بسيطاً، أو قالباً على هيئة المنتج النهائي، ويعد قالب السبك مادة البداية التي يستطيع الصائغ صياغة جميع الأشكال للحلي المعدنية بدءاً من صفيحة الذهب والأسلاك والخواتم. (لانيس،٢٠١٣م: ٨٦-٨٧)

ويذكر أبو رقيبة بأن في هذه العملية يقوم الصائغ بعمل نماذج دقيقة من شمع النحل للقطعة المطلوبة، وبعد الانتهاء يكسو النموذج الشمعي بالطين المخمر بسماكة متساوية حول قالب الشمع، مع ترك فتحة صغيرة من أسفل كمنفذ لخروج الشمع بعد الذوبان، في المرحلة التي تليها يدخل في الفرن الحجري وبعد أن يكتسب الطين حرارة الفرن تدريجياً يتحول إلى فخار صلب، وفي ذات الوقت يتأثر النموذج الشمعي بالحرارة داخل الفخار فيبدأ بالذوبان والخروج من فتحة القاعدة على شكل سائل، تاركاً هيئة النموذج داخل الفخار المتصلب. (أبو رقيبة، ٢٠٠٠: ٧٧)

كما استخدم الفنان خامات أخرى قبل معرفته بالشمع كالحجر والطين، وكذلك الخشب، ولكن أسلوب التشكيل على الشمع كان أكثر فعالية وأسهل في التعامل؛ لأنه من الممكن إصلاح الأخطاء بإضافة قطعة شمعية جديدة على خلاف الخامات الأخرى، ولكن يؤخذ عليها أنه لا يمكن عمل أكثر من نموذج

واحد فقط من القالب، نظراً إلى أن الشمع يذوب في كل مرة. (السنان، ٢٠٠٩: ٦١).

ب- تقنية صناعة الصفائح المعدنية:

وهي عبارة عن عملية طرق كتلة المعدن بمطرقة كبيرة الحجم بعد تسخينها إلى درجة حرارة عالية، وتتناسب هذه الطريقة مع معدن الذهب الذي يمتاز بازدياد صلابته بعد طرقه دون الحاجة إلى تسخينه بعكس المعادن الأخرى، التي تحتاج إلى التسخين أكثر من مرة للمساعدة في الحصول على صفائح رقيقة. (Odgen, 1982: 34)، وبعد عمل هذه الصفائح تتم زخرفتها بالنقش عليها باستخدام المطرقة والإزميل، بعد أن يتم تحديد الشكل أو الرسم المراد تنفيذه، كما استخدمت الأختام للطرق على الألواح المعدنية وبشكل خاص في المناظر المتكررة أو المتناظرة، كما استخدمت طريقة التثقيب في الزخرفة بعمل حفر نافذة في بدن الصفائح بواسطة مثاقب معدنية، واستطاع الإنسان على مر العصور إنتاج رقائق من الذهب قليلة السمك لتغطية بعض المعادن والأحجار الكريمة. (Higgins, 1980: 12).

جـ - تقنية صناعة الأسلاك بالسحب:

يتطلب تشكيل المعادن على هيئة أسلاك دقة وكفاءة عالية للحصول على سماكة واحدة، وقد كان يتم بتسخين المعدن ومن ثم دحرجته بين سطحين مستويين، أو من خلال سحب قضيب معدني وضغطه بثقوب للتقليص من قطره. (Odgen, 1982: 65).

د- تقنية البرم:

في هذه التقنية يؤخذ السلك المبروم، ويوصل بالربط، أو يحصر بين شريطين، ويبدأ تشكيله بحركات متكررة دائرية أو ملتفة حلزونية، مكونة

أشكالاً زخرفية، وكلما اتصلت هذه الأشكال بالسلك تلتصق بواسطة اللحام. (الزير، ٢٠١٥: ٢٨).

هـ- تقنية تشكيل أنصاف الكرات والتحبيب:

وتتم هذه العملية باستخدام "المصدغة"، التي تنتج أنوعًا متعددة من الحبوب وبمقاسات مختلفة، كما تزخرف الحبوب بعدة طرق، فمنها المفرغة، وبعضها تجمع على شكل دويرات أو أشكال هندسية. (القحطاني، ١٩٩٩: ٣٧).

و- تقنية الطرق والدق:

كان أسلوب الطرق من أقدم الأساليب المعروفة (Chevallier, 1938: 74)، وتتم عملية الطرق بأسلوبين: أحدهما عندما يكون المعدن بارداً ولا يحتاج إلى تسخين، وتؤدي أحياناً إلى حدوث تشققات وشروخ في المعدن ولهذا يحتاج إلى المعالجة فيما بعد، والأسلوب الآخر يتطلب تسخين المعدن حتى درجة معينة من الحرارة؛ لتسهيل تشكيله حسب الهيئة المطلوبة؛ إذ إن للحرارة دوراً مهماً في تغيير خواص المادة الخام وشكلها فتصبح في حالة من الليونة يمكن معها التشكيل دون عناء. (الزير، ٢٠١٥: ٢٧).

ز- تقنية التلحيم:

والتلحيم هو تعبير عام يقصد به وصل المعادن بواسطة الحرارة، وتتم هذه العملية عن طريق جمع قطعتين من المعدن في قطعة واحدة بواسطة صهر معدن، وجعله يجري بينهما في مكان الوصلة ويسبك مع سطحهما، بحيث تكون درجة انصهار "السبيكة" وتسمى "معدن الحشو" أقل من درجة انصهار المعدن الأصلي للقطعتين المراد وصلهما، ومن المحتمل أن الصائغ قديماً قد استخدم سبائك طبيعية للحام قبل أن يكتشف صناعة البرونز التي قد أكسبته خبرة إمكان خفض درجة انصهار المعدن بإضافة معادن أو مواد أخرى، حيث إن المشغولات من الحلي القديمة يظهر عليها بعض التأكسد

والتآكل على شكل بقع؛ مما يدل على أن الصاغة كانوا على دراية باختلاف درجات الانصهار في عمليات اللحام. (زين العابدين، ١٩٨١: ٣٠٣-٣٠٤-٣٠٥).

حـ - تقنية ترصيع الأحجار الكريمة:

تعددت أنواع وأشكال الأحجار الكريمة المستخدمة في صناعة الحُلي منذ العصور القديمة؛ إذ ارتبطت بشكل رئيسي بخصائص المادة المصنوعة منها وألوانها ودرجة نقائها، كما تعددت استخداماتها فمنها ما يستخدم كعنصر رئيسي، ومنها ما يستخدم كعنصر ثانوي لترصيع قطع الحلي. وتتم بواسطة تدوير جسم صلب وحاد بسرعة فائقة وثقبه، وأيضاً بالنقش بأدوات الصائغ كالأزاميل على سطح المعدن، أو بالكشط والبرد والنشر. (الدريد، ١٩٩٠: ١٣٨)، كما أن فن النقش على الأحجار الكريمة عُرف مُنذ أربعة آلاف عام ق.م على الأقل، وربما قبل ذلك بألف عام، في بلاد وادي النيل وبلاد الرافدين، ولم يبلغ الصاغة القدماء ما بلغوه من إجادة لصناعة حفر الأحجار الكريمة دفعة واحدة، بل ربما قطعوا في ذلك أجيالاً عديدة، حتى بلغوا مستوى رفيعاً من التقدم في صناعتها. (زكي،١٩٦٥: ١٠٦،١٠٩).

طـ تقنية النقش:

كان النقش قديماً يتم على الحلي المعدنية بواسطة أدوات بدائية، وقضبان حديدية دقيقة كالسنب مع اختلاف رؤوسها حسب حجم الزخرفة. (أبو رقيبة، ٢٠٠٠: ١٣٨)، وقد عثر خبراء ألمان بين عامي ١٩١٣ و١٩١٤ م، على ورشة متكاملة للصياغة في منطقة تل العمارنة (مصر القديمة)، فيها بعض الأدوات من البرونز والعظام والخشب، وبعض الطين والصلصال المخلوط بمادة شمعية، كما أظهرت ميكانيكية النقش والحفر على رقائق الذهب حيث يثبت الذهب فوق الطين أو الصلصال المخلوط بالمادة الشمعية، يعلوه

الخطوط الزخرفية أو التصميم المراد نقشه، ويتم النقش باستخدام بعض الصخور والمعادن الصلبة. (هميمي، ١٩٩٧: ٣٢١).

ي- عملية الصقل والتنعيم للشكل النهائي للحلية:

نظراً لأن التقنيات المستخدمة لإنتاج الحُلي المعدنية السابق ذكرها قد لا تصل بالمعدن إلى درجة عالية من النعومة واللمعان المطلوب، فعلى الصائغ أن يقوم بعملية التنعيم والصقل حيث يؤكد الأثريون أن هذه العملية تتم باستخدام بعض القطع من صخور الحجر الرملي (sandstones) أو صخور الكوارتزيت (Quartzite's) أو حبيبات الرمل (Sand grains)، ومع استمرار العملية تستبدل بقطع أخرى ذات حبيبات أقل فأقل، حتى يصل الصائغ بالسطح العلوي المعدني إلى أقصى درجات النعومة واللمعان. (هميمي، ١٩٩٧: ٣٢٠).

الخاتمة:

إن روائع قطع الحلي المعدنية المُكتشفة في كل مكان، وزمان توحي بأن الصائغ كان فناناً مبدعاً من الدرجة الأولى، وأن فن الصياغة كان مزدهراً في العصور القديمة، ومن الحِرف المنتشرة عند عرب شبة الجزيرة العربية لتوفر خاماتها لديهم.

ومع الوقت أصبحت مهنة الصائغ من صميم شأن الأسرة، تتوارث فيها الحرفة ابنا عن أب، بأسرارها التقنية للمهنة حيث كانت إسوة بسائر الحرف الأخرى محفوظة في صدور أسر محدودة تتناولها الأجيال وراء الأخرى.
ومن المدهش أن يبلغ الصائغ هذا المستوى التقني بأدواته البدائية، وقدراته الضئيلة للسيطرة والتحكم في درجة الحرارة للصهر، بالإضافة إلى معرفة بدرجة نقاء المعادن وخلوها من الشوائب.

ولم يعثر في السجلات الأثرية على تصور كامل لورش الصياغة، ويعتقد ذلك لأن الخامات المستخدمة معادن نفيسة جداً فهي لا تُترك مُلقاه في الجوار، وكذلك الأدوات التي استخدمها الصائغ القديم لإنتاج المشغولات المعدنية فلا يوجد في السجلات الاثرية إشارة واضحة إلى العثور على بقايا تؤكد طبيعة هذه الأدوات التي تم استخدامها، كما أنه ليس من السهل بصرياً تمييز أدوات الصاغة عن أدوات الحرف الأخرى بعد أن تبلى مقابضها الخشبية ويصدأ حديدها. إلا أنه من الوارد أن هناك أدوات معدنية عديدة كان الصاغة يستخدمونها في صناعة حليهم تتباين أشكالها ومسمياتها، وتختلف من صائغ لآخر على حسب احتياجاته يصنع أدواته ومن منطقة إلى أخرى، إلا أن التقنية هي نفسها.

المراجع:

١. أبو تراب، عبد المجيد. ١٩٩٣. أسرار المهن تاريخاً وحاضراً، مطابع الجهاد، دمشق.

٢. أبو رقيبة، حسن راضي، ٢٠٠٠. فنون الصياغة، دار صفاء للنشر والتوزيع، الأردن، عمان.

٣. الألوسي، محمود شكري. ١٩٨٢. بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، جـ٣، تصحيح محمد بهجة الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤. الأنصاري، عبد الرحمن الطيب. ١٩٨٢. قرية الفاو-صورة للحضارة الإسلامية قبل الإسلام، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض.

٥. الأنصاري، عبد الرحمن الطيب؛ وبن طيران سالم بن أحمد. ديسمبر، ٢٠٠٥. (قرية الفاو "مدينة المعابد")، أبحاث ندوة المدينة في الوطن العربي في ضوء الاكتشافات الآثارية: النشأة والتطور. أدماتو، ٩٧-١٠٦ الرياض.

٦. الباشا، حسن. ٢٠٠٠. الفنون في عصور ما قبل التاريخ، أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

٧. الدريد، سيريل. ١٩٩٠. مجوهرات الفراعنة، (ترجمة وتحقيق مختار السيوفي)، الدار الشرقية، القاهرة.

٨. دلّو، برهان الدين. ١٩٨٩. جزيرة العرب قبل الإسلام: التّاريخ الاقتصادي-الاجتماعي-الثقافي-والسياسي، دار الفارابي، بيروت.

٩. الزاير، صالح. ٢٠١٢. سبك المعادن في الفنون التشكيلية، جامعة الملك سعود، الرياض.

١٠. زكي، عبد الرحمن. ١٩٦٥. الحلي في التاريخ والفن، دار القلم للنشر، القاهرة.

١١. الزير، سندس بنت عبد الله. ٢٠١٥، الحلي المعدنية المكتشفة في موقع الربذة، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم الآثار، كلية السياحة والآثار، جامعة الملك سعود، الرياض.

١٢. زين العابدين، علي. ١٩٨١. فن صياغة الحلي الشعبية النوبية، مطابع الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة.

١٣. السنان، مها عبد الله. ٢٠٠٩. الفنون المعدنية من قرية الفاو، رسالة مقدمة جزء من متطلبات درجة الدكتوراه (غير منشورة)، قسم السياحة والآثار، كلية الآثار، جامعة الملك سعود. الرياض.

١٤. عبد الواحد، أنور محمود. ١٩٦٧. طرق تشكيل المعادن، عالم الكتب للنشر، القاهرة.

١٥. العزي، نجلة إسماعيل. ١٩٨٨. صياغة الذهب التقليدية في قطر، مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربي، الدوحة.

١٦. العُمري، عبد العزيز بن إبراهيم. ١٩٨٥. الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية، الدوحة.

١٧. العمير، عبد الله بن إبراهيم. ١٩٩٧. الروابط الفنية بين المعادن الإسلامية والمعادن التقليدية في المملكة العربية السعودية، جامعة الملك سعود، الرياض.

١٨. غنيمة، عبد الفتاح مصطفى. ١٩٩٤. ميادين الحضارة العربية الإسلامية وآثارها في الحضارة الإنسانية، جيولوجيا التعدين والمعادن، جـ ٤، دار الفنون العلمية، الإسكندرية.

١٩. الفاسي، هتون أجواد عبد الله. ٢٠٠٧. الحياة الاجتماعية في شمال غرب الجزيرة العربية، في الفترة ما بين القرن السادس قبل الميلاد والقرن الثاني الميلادي، مكتبة الشبل، الرياض.

٢٠. القحطاني، دلّيل مطلق. ١٩٩٩. الحلي النسائية التقليدية بمنطقة عسير، رسالة مقدمة جزء من متطلبات درجة الماجستير (غير منشورة)، قسم السياحة والآثار، كلية الآثار، جامعة الملك سعود. الرياض.

٢١. لانيس، سوزي. ٢٠١٣. الذهب، ط١، (ترجمة على للّو)، هيئة أبو ظبي للسياحة والتراث، أبو ظبي.

٢٢. المغربي، سلوى. ٢٠٠٤. الحلي قديماً في الكويت، مركز البحوث والدراسات الكويتية، الكويت.

٢٣. النعيم، نورة عبد الله. ١٩٩٢. الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية في الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الثالث الميلادي، ط١، دار الشواف للنشر والتوزيع، الرياض.

٢٤. هميمي، زكريا. ١٩٩٨. أمير المعادن الذهب نشأته وتاريخه، دار هبه النيل للنشر والتوزيع. القاهرة.

٢٥. يوسف، محمد محمود، وعاشور، محمد وجيه. ١٩٩٥. أساسيات التصميم في فنون المعادن والحديد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

Chevallier, Verel, M. 1938. Encycopedie Photographque De L'Art. Le Musee Du Louvre. Les Bronze Grece. Editions Tel. Paris, 23 N 3 Du Tom.
Higgins, 1980. Greek and Roman Jewelry, Methuen Hoffman, Herbert, London.

Ogden, J. 1982. Jewellery of the Ancient World, Trefoil Books ltd, London.

Lightfoot, Christopher. 2009. Luxury Arts of Rome, Retrieved August 26, 2018: https://www.metmuseum.org/toah/hd/luxu/hd_luxu.htm.

Williams, D. 1994. Greek Gold: Jewelry of the Classical World, Abrams, and University of *Michigan.*